

الهند بين الوحدة والتقسيم

الهند بلاد فسيحة تناهز في مساحتها ثلث مساحة أوروبا ، وتقارب في عدد سكانها ٣٥ مليون أو نحو سدس العالم كله . ثم إنها بلاد عريقة في المدنية ، لها حضارة قديمة وتراث مغلد في التاريخ ؛ وبدونها لا تكتمل للشرق صورته المعروفة ؛ فقد مثلت ركناً هاماً من أركانه في الأعصر القديمة والوسيطه ، نبتت فيها بعض العقائد والديانات التي انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، وانتشرت بالبر والبحر ؛ كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التي نقلها الشرقيون في غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهي إلى ذلك كله لا تزال تعتبر قلب الشرق الآسيوي حتى يومنا هذا ؛ احتك عن طريقها العالم الأوربي بالعالم الآسيوي ، احتكاكاً تمثل في التجارة والسياسة ، وفي الحرب والاستعمار ، ثم في النهضة والكفاح . . . كل ذلك في صور وأشكال تعاقبت على الزمن منذ عهد الاستكشافات حتى يومنا الحاضر . ولا تزال تلك الصور والأشكال تتجدد أمام أعيننا في وقت يحاول فيه الغرب أن يصوغ علاقاته بالشرق في قالب جديد ، ويحاول فيه الشرق أن يعيد بناء بيته ، وأن يرد إلى حياته بعض ما فقدت من استقلال .

ويحاول الباحثون الآن أن يتفهموا ما يجري في بلاد الهند من أحداث وتطورات في الحياة القومية العامة والحياة السياسية بنوع خاص . ويختلف أولئك الباحثون ؛ فمن قائل إن العالم يتجه نحو التكتل ، وإن من الخير للهند وللشرق أن تبقى تلك البلاد وحدة متماسكة لتكون نواة لقوة عالمية تحفظ التوازن في جنوب قارة آسيا ، وتكون دعامة قوية من دعائم الاستقرار والتعادل في ضلالت الشرق بالغرب . ومن قائل إن الوحدة في الهند إذا لم تقم على أساس طبيعي وبشرى مكين فأنها لن تكون خيراً مما حاول الانجليز في عهد استعمارهم أن يفرضوه على سكان تلك البلاد من وحدة ظاهرية لا تمس جوهر الحياة ،

وخير منها أن تقسم الهند إلى أكثر من دولة واحدة ، وأن تأتلف من عدد من الدول المتوسطة ، يستند كل منها إلى كيان طبيعي وبشرى سليم موحد ، ويقوم ما بينها على صلات الجوار والمصالح المادية المتعادلة والمتداخلة ؛ فمثل تلك الدول الهندية المستقلة تكون أقدر على الحياة والكفاح ، وأدنى إلى القوة والتمسك القومي والعنصرى من دولة هندية كبرى تسودها الفوضى وتنخر في عظامها مشاحنات الطوائف والطبقات ، واختلافات المذاهب والعقائد والأديان .

على أن أغلب أصحاب الرأيين في الوحدة والتقسيم إنما يطرقون الموضوع من ناحيته السياسية ؛ وهى ناحية لها خطرها الكبير ولا شك ؛ ويحاول بعضهم أن يربط بين ما يرمى إليه وبين ما كان للهند في عهدها الأخير تحت حكم البريطانيين ؛ فيقول أنصار الوحدة إن الهند إذا كانت قد حققت في عهد الاحتلال والاستعمار وحدتها العامة في رياسة الدولة وفي سياسة الأمن الداخلى والمواصلات وفي الجيش والدفاع والتجارة الخارجيه وغير ذلك فإحراها أن تتابع ذلك في عهد الاستقلال ، بعد أن تتلاشى سياسة فرق تسد ، وينزوى أنصارها من عملاء البريطانيين بين الهنود . ويقول أنصار التقسيم إن الهند ما كانت في يوم من الأيام خلال تاريخها الطويل لتؤلف دولة واحدة موحدة ، وإن كانت قد قامت بها في بعض الأعصر دول كبرى امتد سلطانها إلى معظم أرجاء شبه الجزيرة . كما يقولون أيضاً إن وجود البريطانيين لم يوحد البلاد إلا من أجل تسخيرها لصالح المستعمر في التجارة والاستغلال وعن طريق الجيش الامبراطورى الذى تضرب به بريطانيا في الهند نفسها إن أرادت وفي أقاصى الأرض متى بدرت حاجة إلى ذلك ؛ وما كانت تلك الوحدة التى فرضها البريطانيون على الهند لتمثل الوحدة السياسيه القومية بالمعنى المعروف ؛ فالولايات متفرقة ، والامارات المستقلة كثيره ، والطوائف تشجع على أن يناحر بعضها بعضاً ، والطبقات ييسر لبعضها في أن يطغى على بعض ، والمصالح الشخصية والفردية يساوم أصحابها على حساب المصالح العامة ، والثقافة الهندية تنحى تنحية لتقوم مكانها ثقافة بريطانية لا تتصل بحياة الهنود الأصلية ولا تغذى تراثهم الروحى والعقلى إلا بما يخلق طبقة جديدة قليلة من المتعلمين الذين يرتفع بهم تعليمهم يفرق ما بينهم وبين الحياة الهندية الصميمة . فالوحدة التى يقال إن تقسيم الهند يعتبر تراجعاً عنها إنما هى وحدة زائفة لا تمس حياة الهند

القومية إلا في القشور . وإذا كان للزيف أن يعيش في عهد الاحتلال والاستعمار فقد آن لنور الاستقلال الصحيح أن يكشفه ويبدده ؛ وعندئذ يبدو ما تحته من حقائق راسخة ، تستلزم كلها أن يعترف الهنود بأن التقسيم إن كان شرّاً لا بد منه فهو خير من وحدة تحمل في طياتها بذور الفرقة والشقاق ، بل هو الحل العملي الوحيد لما تواجهه الهند المستقلة من مشكلات .

ومع ذلك فليس هذا مجال المفاضلة بين الرأيين من الناحية السياسية الخالصة . وخير لنا أن نتعمق الأمور ، وأن نحاول أن نرجع ببعض الظواهر السياسية في حياة الهند القومية إلى منابتها الطبيعية في البيئة ، وإلى أصولها الأولى في التاريخ ؛ فذلك أدنى إلى أن يقربنا من تفهم تلك الظواهر في أوضاعها الصحيحة ، ومن الحكم عليها حكماً يستند إلى طبيعة الأشياء ومنطق التاريخ أكثر مما يستند إلى الرأي السياسي الخالص الذي لا يعد أن يأتي متأثراً بنزعة أو ميل أو عاطفة .

وأول ما يسترعى النظر في بلاد الهند أنها شبه جزيرة تحدها سلسلة شاهقة من الجبال تكاد تحجز ما بينها وبين داخلية القارة إلا في أبواب قليلة لا سيما من الجهة الشرقية الغربية . ولذلك فقد استطاعت الهند أن تحتفظ بطابعها الخاص وشخصيتها المميزة عما جاورها وتاخمها من أقطار آسيا الداخلية . وفوق ذلك فإن شبه الجزيرة الهندية تقع في وسط آسيا الجنوبية ، ويحدها المحيط الهندي من الجنوب والشرق والغرب ، ولا يوجد في جنوبها من اليابس غير جزيرة سيلان ؛ وهي بذلك تختلف اختلافاً ظاهراً عن شبه الجزيرة الآخرين اللتين تمتدان من آسيا وهما شبه جزيرة الهند الصينية والملايو وشبه جزيرة العرب . فالأولى تمتد نحو الجنوب الشرقي وتنتهي إلى عدد كبير من الجزر في اندونيسيا وما وراءها إلى استراليا وعالم الاقيانوس الهادي . والثانية تمتد نحو الجنوب الغربي وتتصل بأفريقية الشمالية من جهة ، كما تكاد تلامس إفريقيا الشرقية من جهة أخرى . ولذلك فإن شبه جزيرة الهند الصينية والعرب لم تمثلتا منطقتين مغلفتين بالنسبة للهجرات القديمة ؛ وإنما كانتا معبراً وحلقة اتصال بين آسيا والعالم الخارجي ؛ بمعنى أن الهجرات المتتابعة التي اندفعت من آسيا إلى إحدى هاتين المنطقتين في جنوبها الشرقي وجنوبها الغربي استطاعت أن تتابع سيرها نحو الخارج ؛ وكلما وصلت موجة جديدة من السكان دفعت ما سبقها من الموجات القديمة أمامها حتى

لا يبقى منها إلا قلة صئيلة لاتلبث أن تندمج في الموجة الجديدة من السكان ، أو حتى تخرج الموجة القديمة برمتها من شبه الجزيرة وتغلى السبيل لما يأتي وراءها من موجات . وهكذا لاحظنا أن بعض العناصر السوداء القديمة قد هاجرت من جنوب شرق آسيا إلى الاقيانوس واستراليا أمام ضغط الصينيين من الشمال في العهد الحديث . وكذلك مرت موجات متتابعة من السلالات القديمة ثم الحامية والسامية عابرة الجزيرة العربية إلى أفريقية الشرقية والشمالية . وذلك كله بخلاف بلاد الهند التي كانت تمثل منطقة مقفلة إلى حد كبير ، « تراكت » فيها العناصر لأنها لم تجد لنفسها مخرجاً تسير إليه إذا ما تدافعت موجات الهجرة بعضها في إثر بعض . وقد ترتب على ذلك أن بقيت السلالات القديمة في الهند إلى جانب السبلالات الحديثة ؛ ولم تستطع تلك السلالات القديمة المستضعفة أن تغادر الهند إلى ما وراءها لأنه لا يوجد وراء الهند ونيلان غير عرض البحار ؛ وكل ما حدث أن انزوت أقدم العناصر وأضعفها في الجهات البعيدة . وغير الصالحة لآسيا عند طرف الهند الجنوبي ، أو انتقلت إلى جزيرة سيلان ، وهي عناصر بعضها أسود أو متأثر بسلالة شبه زنجية قديمة ، وتعرف بعض قبائلها بالفدا . وإلى الشمال من هؤلاء يوجد الدرافيديون ، وهم سلالة مختلطة أثرت فيها سلالة البحر الأبيض المتوسط أو أحد أفرعها القديمة التي اختلطت في الهند بعناصر قديمة أيضاً . ويقال إن الدرافيديين وصلوا إلى قلب الهند في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد . وإن كانت بعض العناصر التي تشبههم قد بلغت شمال الهند قبل ذلك ، ولم تكن موجة الدرافيديين أول الموجات ولا آخرها بالطبع ؛ وإنما سبقها وتلتها موجات أخرى ؛ وكانت أهم الموجات اللاحقة تلك الموجة الآرية ؛ وأصحابها من الشرقي أو ذوى البشرة البيضاء ؛ وهم قد أتوا من سهول آسيا ، وربما كانت لهم أو لبعضهم صلة بسلالات أوروبا الشمالية . وقد كان دخول الآريين الأول إلى شمال الهند الغربي حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، واستقروا في شمال الهند الغربي ، وهاجرت بعض طلائعهم نحو داخلية الهند الشمالية ، واختلطوا بغيرهم من السلالات القديمة بعض الاختلاط ، وإن كانوا قد فضلوا في بعض الأحيان الاحتفاظ بدمائهم شبه نقية ، والترفع بأنفسهم من الناحية الاجتماعية ، فمثلوا طبقة عليا في نظام الهند الاجتماعى . وقد تلت الآريين موجات أخرى أسيوية أيضاً

أتت على الأخص من شمال الهند الغربي ، أى من جهة أفغانستان وتركستان ؛ كما تسربت بعض عناصر المغول إلى الهند من شمالها الشرقى وأثرت فى منطقة أسام وبنغال إلى جانب تسرب بعض المغول والأتراك عن طريق وسط آسيا إلى شمال الهند الغربى ثم شمالها الأوسط إبان القرون الوسطى ، كما هو معروف .

وبالإضافة إلى كل هذه الهجرات دخلت الهند بعض العناصر بالبحر ، وعلى الخصوص بعض الملايو الذين استقروا على السواحل الجنوبية ، وبعض الفرس الذين استقروا على السواحل الغربية ، وبعض عناصر بحر العرب من التجار المختلطين الذين استقروا فى موانئ الهند التجارية على السواحل الغربية وبعض السواحل الشمالية والشرقية لشبه الجزيرة .

وقد اتسعت الهند لكل هذه الموجات والهجرات ، ولم يخرج منها إلا عناصر قليلة اتجهت نحو برما أو بعض جزر المحيط الهندى وخليجانه ، أو نحو الملايو والهند الصينية ، ولكنها كانت عناصر قليلة نسبياً ، وكان بعضها من غير الهنود الأصليين أو من العناصر المختلطة التى حملت معها طابعاً من الحضارة الهندية نشرته فى أقصى شرق آسيا . فالهند فى الحقيقة قد قضى موقعها الجغرافى وبعدها عن اليابس فى خارج آسيا أن تصبح إلى حد كبير « محطة نهائية » و « طريقاً مغلقة » تجمعت فيها عناصر السكان والسلالات منذ أقدم الأعصر ، فطغى بعضها على بعض ، واستضعف بعضها بعضاً . ولم يكن أمام الضعيف فى بلاد الهند إلا أن يخضع للقوى ؛ فالهجرة سبيلها مغلقة والخضوع لا مفر منه . وكان ذلك كله فيما يبدو أساساً لما عرف فى بلاد الهند من نظام الطبقات ؛ ذلك الذى يتمثل فى صورة أكثر وضوحاً عند الأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة ، ولو أن بعض الباحثين يرى أنه قد بدأ فى الوسط أو فى الشمال . وهو نظام قضت به طبيعة الهند وظروفها الجغرافية ، كما قضى به تتابع الهجرات وطغيان السلالات بعضها على بعض منذ بضعة آلاف من السنين . وبذلك كله صارت الهند « متحفاً » أو « مخزناً » للسلالات ، ومتحفاً أيضاً للنظم الاجتماعية التى لا يداخل بعضها بعضاً ، ولا تقوم فيها العلاقة بين الطبقات على أساس رأسى ، بحيث يستطيع الفرد أو الجماعة من السكان أن ترقى من أسفل السلم الاجتماعى إلى أعلاه ؛ وإتمامه طبقات أفقية بعضها فوق بعض ، يضغط أعلاها على أسفلها ، ولا يجد أسفلها سبيلاً إلى تنسم الحياة كما يفعل من بأعلاه من الطبقات .

وهكذا انتهى العمران البشرى في الهند بأن «تجمدت» فيه النظم ، وقام المجتمع على أساس الغالب والمغلوب ، والسيد والسود ، والظاهر والمنبوذ . وليس هذا كله مما ييسر اختلاط السلالات وما يتبعه من اختلاط الثقافات وامتزاجها ، وتوحيد الفكر والروح بين عناصر المجتمع . فامتدت الفوضى إلى ميدان الثقافة والدين ، وتكاثرت في الهند ألوانهما إلى حد بعيد لا يكاد يتصوره عقل ؛ فهناك من العقائد والأديان ألوان شتى ، وهناك من الآلهة التي تقدر بدرجات متفاوتة وإن لم تعد كلها ، ما يكاد يساوى عدد الأنفس في بلاد الهند؛ إذ يقدر بعض الباحثين تلك الآلهة بنحو ٣٣ مليون ، وهو رقم لا يكاد يصدق . وهناك من اللغات واللهجات نحو مائة وخمسين أو تزيد ؛ وإذا كانت اللغة الأردية هي الغالبة في شمال الهند ، فإن جنوب الهند يصعب التفاهم فيه بلغة مشتركة غير اللغة الإنجليزية ، التي يتعلمها من يريد أن يفهمه أكبر عدد من الناس^(١) . وما اختلافات العقائد والثقافات الروحية والفكرية واللغوية والأدبية إلا صورة منعكسة من حياة الهند المعقدة ، والتي يطغى فيها الشعب على التوحيد والتفرقة على الوحدة . ولعل هذا كله أن يكون أساس ما تعانيه الهند من انقسام يمس الحياة القومية في الصميم ، ولا يمكن إرجاعه كله إلى مجرد أن يكون الاستعمار قد سار على سياسة فرق تسد ، إلا إذا تفاضينا عن الأسس والأصول واكتفينا بالنظر إلى المظاهر والسطحيات .

ومن الطريف أن الهند تختلف من هذه الناحية اختلافاً أساسياً وخطيراً عن بلد كالصين ، حيث السكان أكثر عدداً ، ولكنهم أقوى تماسكاً في السلالة والثقافة ؛ فكلهم من السلالة المغولية أو العناصر المتأثرة بها ، وكلهم يشاركون في قدر مشترك من الثقافة ، فتستطيع كثرتهم مثلاً أن تقرأ جريدة واحدة وإن اختلفت لهجاتهم من إقليم إلى إقليم ؛ ولا تكاد توجد بينهم طائفة دينية من ذلك

(١) تعتبر اللغة الإنجليزية لغة التفاهم العام *Lingua franca* في جنوب الهند . والطريف أن دخول هذه اللغة زاد من حدة التفاوت بين الطبقات في هذا الإقليم . فليس من اليسور تعلمها وإجادتها إلا لابناء طبقة البراهمان الذين يزيدهم التعليم مقدرة على اجتكار وظائف الحكومة وأعمال التجارة وغيرها ، مما يمكنهم من زيادة التحكم في الطبقات الدنيا من الشعب . وهكذا زاد التعليم الحديث في جنوب الهند مدى التفاوت بين الطبقات ، ووضع سلاحاً جديداً في يد أبناء الطبقات العليا .

النوع الذى يمزق روح الوحدة فى الهند تمزيقاً ، وتاريخهم كان على الجملة تاريخ أمة واحدة منذ توحدت إمبراطوريتهم فى القرن الثالث قبل الميلاد . وإذا كانت قد حلت بعض فترات انقطع فيها جبل الوحدة وانقسمت الصين قسمين شالى وجنوبى ، فقد انتهت تلك الفترات بعودة الوحدة من جديد (١) .

ولكن التفرقة التى تغلغت فى حياة الهند القومية ترجع إلى عوامل أخرى قد لا تقل عمقاً وقوة عن عوامل الجنس والثقافة والتاريخ ؛ تلك عوامل البيئة الجغرافية ذاتها ، وما اصططح الجغرافيون على أن يسموه بالتوجيه الجغرافى الاقليمى . فالهند بلاد فسيحة تناهز مساحتها مليونى ميل مربع ؛ وهى إلى ذلك مقسمة بحكم تكوينها الطبيعى إلى عدة أقاليم ، لكل منها مميزاته الطبيعية الظاهرة ، ولا يكاد يجمع بينها إلا أن مناخها من النوع الموسمى الحار ؛ ومع ذلك تتفاوت فيها أنواع ذلك المناخ ؛ فبعض جهات الهند ، كالركن الشمالى الشرقى مثلاً ، يسقط بها من الأمطار ما لا يسقط فى غيرها من جهات الأرض ، وبعضها الآخر ، كصحراء تار ، شديد الجفاف قد حرمته الطبيعة نعمة الغيث وما يترتب عليه من حياة .

ثم إن الهند يمكن تقسيمها إلى عدد من الأقاليم ذات التوجيه الجغرافى المستقل ، بحيث يصعب الجمع بينها وتوحيدها على أساس جغرافى طبيعى . فالسهل الشمالى مثلاً قد تتفق كل أرجائه فى أنها مناطق منخفضة نسبياً ، تحدها الجبال الشاهقة من الشمال ، والجبال المتوسطة الارتفاع والبحار من الجنوب ، ولكن نهر السند يتجه بحوضه نحو بحر العرب ونحو الجنوب الغربى ، على حين يتجه الجنج بحوضه نحو الشرق وخليج بنغالة ، وتفصل بين الحوضين منطقة متوسطة الارتفاع ، اضطر البريطانيون قبل الحرب العالمية الأولى أن ينقلوا إليها عاصمة الهند ليقموها فى دلهى بدلاً من كلكتا ؛ ومع ذلك فقد بقيت دلهى الجديدة عاصمة عسكرية مصطنعة ، ولم تحل محل كلكتا كعاصمة قومية لاقليم الجنج الأدنى ، ولا محل لاهور وكراتشى كعاصمتين للسند الأعلى والأدنى . وفوق ذلك فان حوض السند يتصل فى مشكلاته وتاريخه بأفغانستان وما وراءها من داخلية آسيا

(١) من الطريف أيضاً أن تقارن هنا بين المسلمين فى كل من الصين والهند . فهم فى نصين جزء لا يتجزأ من الشعب الصينى ، رغم أنهم يتجمعون فى ولايات معينة كولاية يونان فى الجنوب الغربى . أما فى الهند فالمسلمون بقوا على الزم يمثلون جماعة قاعة بذاتها ، لها كيانه المستقل كما هو معروف .

الرعوية بل وبعض جهات آسيا الغربية ذات الحضارة العريقة ، على حين ينزوى الجنج الأدنى في أقصى الهند الشمالية ، ولا تهدد الأخطار حدوده الشمالية الشرقية كما تهدد حدود السند الشمالية الغربية . ولقد تطور السند وحوضه وحضارته في احتكاك دائم مع رعاة آسيا ، واحتك في تاريخه الطويل بمدنيات غرب القارة في الأعصر القديمة وبعض العهد الحديث ، على حين لم يحتك الجنج الأدنى بما وراءه في الصين إلا احتكاكاً محدوداً ، وبقي على حالته الفطرية حتى انتقلت إليه الحضارة بالتوسع والفتح من السند في فترات متأخرة نسبياً من التاريخ . ولذلك كله فقد كان من الصعب دوماً أن نوحّد بين سهلي هذين النهرين وحوضيهما ، وأن نوجههما وجهة واحدة ؛ لأن الطبيعة مهدت لأحدهما أن يتجه نحو الغرب والجنوب الغربي ، وأجرت مياه الآخر لتتجه نحو الشرق والجنوب الشرق . وكذلك الحال في الهند شبه الجزيرة جنوب سهل الهند والجنج ، فقد قطعتها التضاريس إلى أقاليم منعزل بعضها من بعض ، فهناك أولاً جبال فنديا بين سهل الجنج وهضبة الدكن ، وهي جبال تطل فيها المسالك والممرات وتقل فيها الحيضان والمناطق الصالحة للاستقرار ؛ ولذلك فقد بقيت على الدوام منطقة عزلة ، انزوت إليها بعض العناصر المستضعفة من سكان الهند ، ولم تتوغل المدنية أو المدنيات المتعاقبة إلى قلب هذه المنطقة التي كانت ولا تزال منطقة صعوية ، ولا تزال تقطنها حتى الآن بعض القبائل التي تقرب في معيشتها وأحوالها من الفطرة . وفي جنوب تلك الجبال تمتد هضبة الدكن ، وتحصرها من الغرب وتقطعها عن البحر جبال الغات الغربية ، كما تحدها من الشمال الشرقى مرتفعات الغات الشرقية . وتكاد الدكن تكون عالماً قائماً بذاته ، قد لا يشق فيه الاتصال الداخلي ولكن يصعب اتصاله بالخارج وبما حوله من أقاليم الهند شبه الجزيرة . ثم إن ساحل الهند الغربي تقوم الجبال العالية خلفه مباشرة ، فتوجهه وتوجه سكانه ناحية البحر ، وترتبط حياتهم بمياهه بدلا من أن تربطها بداخلية الهند . وكثير من سكان الساحل أتوا بالبحر كما ذكرنا واستقروا في موانئه ؛ ومع ذلك لم ترتبط الحياة بين هؤلاء السكان على طول ذلك الساحل الذي تستقل مرافقه بعضها عن بعض ويضيق السهل الساحلي فيه جداً ويتقطع . كما أن سكان القسم الجنوبي من الساحل (الملبار) كانوا يختلفون عن سكان وسطه وشماله . أما ساحل الهند الجنوبية

الشرقية (أو ساحل كروماندل) فقد كانت له ظروف جغرافية مختلفة : فأمطاره دائمة في الصيف والشتاء ، وحياة أهله مرتبطة بخليج بنغالة وما وراءه ، واتجاهه يغير اتجاه ساحل ملابار ، ولا يكاد أهله يرتبطون بسكان الجهات الداخلية المنزوية في أقصى أطراف الهند من الجنوب بأكثر مما ترتبط عناصر الملايار ذات النشاط البحري العظيم بأهل الداخل من العناصر القديمة المستضعفة .

تلك أقاليم الهند أو أقسامها الكبرى من حيث التوجيه الجغرافي . وهناك أقاليم أخرى كثيرة ذات توجيه محلي خالص ، أو ترتبط بخارج الهند أكثر مما ترتبط بداخلها ، كما هي الحال في منطقة نيبال على سفوح الهالايا وأطرافها وهي تكاد تستقل بذاتها وظروفها عن سهل الجنج الواقع إلى جنوبها ؛ وكما هي الحال عند حدود الهند الشمالية الغربية وهي تتصل بأفغانستان وبعض جهات التبت بمثل ما تتصل بالهند الشمالية . ولكننا نستطيع مما عرضنا له من التكوين الجغرافي لبلاد الهند أن نخرج بأنها بلاد قطعها الطبيعة إلى مناطق لا يكاد يربط بينها جميعاً إلا الموقع الجغرافي العام كشبه جزيرة تقع في جنوب القارة والسلاسل الجبلية ، ولا يخرج منه لمن دخل إليه إلا أن يكون طموحاً جداً ومن سكان السواحل الذين ترتبط حياتهم بالبحار . ولذلك كله فإن الطبيعة ، وقد جمعت في الهند أشتاتاً من الخلق منذ الأعصر الأولى ، ومهدت هذه الأشتات من الخيرات والنعم داخل شبه الجزيرة ما يقيم الحياة والحضارة والمدنية وييسر نشأة الثقافة والفكر ، لا سيما في سهول الهند الشمالية ، حيث قامت مدنيات ونشأت فلسفات قديمة قدم التاريخ ، بل تكاد تضارع في قدمها ما هو معروف من جهات أخرى من غرب آسيا وشرقها ، فإن هذه الطبيعة ذاتها لم تمهد السبيل لأن تختلط تلك الأشتات وتمتزج بالدم والروح امتزاجاً تاماً كما حدث في أقطار آسيا الشرقية والغربية ؛ وإنما بقيت لكل منها شخصيته المميزة ، كما أن الأقاليم التي استقرت فيها تلك العناصر لم يؤلف بينها توجيه جغرافي مشترك ولا متقارب ، وإنما فرقت بينها التوجيهات ، وكادت الوحدة تستحيل ولو أرادها الانسان .

من ذلك كله نستطيع أن نخرج بأن الأمر في الهند أعمق كثيراً من أن يكون أمر « سياسة » أو فكر سياسي ، وأعتقد كثيراً من أن يكتفى فيه بأن نتحدث عن الاستعمار والاحتلال وما أديا إليه من انحلال في الحياة

السياسية وتأخير للنضج القومى وتخدير للوعى العام . . . بل إنه ليس غريباً أن يكون الفكر السياسى فى الهند صورة منعكسة من الطبيعة ؛ فالشعور الداخلى بالتنافر بين الطبقات من جهة ، والتناحر بين طوائف الأديان والعقائد من جهة ثانية ، ثم الاختلاف الظاهر بين مصالح الأمراء والحاكين وبين اتجاهات ذوى الفكر الحديث فى الحكم والسياسة من جهة ثالثة ، كل هذه ترجع إلى أسباب أقوى كثيراً وأعمق كثيراً مما يتصور بعض من لايتعمقون الأمور ويكتفون بالنظر إلى السطحيات . والعلة فى بلاد الهند ليست داء يمكن أن يعالج بالآراء والنظريات توخذ عن تجارب بلاد أخرى فى أوروبا أو حتى فى جهات آسيا الشرقية أو الغربية ، وإنما هى علة تتصل بالبيئة الجغرافية الهندية ، كما تتصل بتاريخ العمران الجسدى والتطور الثقافى والفكرى والاجتماعى العام فى بلاد الهند . ولا يجوز لنا أن نطبق هنا ما نطبقه على نشأة الأمم الحديثة فى خارج الهند ؛ فنقول إن الهند مصيرها إلى الوحدة الاجتماعية والقومية كما كان مصير بعض الأمم الحديثة فى أوروبا كألمانيا على سبيل المثال ، حيث تفرقت الآراء الدينية وتضاربت العقيدتان الكاثوليكية والبروتستانتية ، ثم انتهت الفرقة إلى الوحدة السياسية والقومية آخر الأمر ؛ فالقياس هنا مع الفارق الكبير ؛ إذ الهند فى مساحتها تضارع ثلث قارة أوروبا برمتها كما ذكرنا فى صدر هذا المقال . ونحس إن قارناها بغيرها فينبغى أن نقارنها بمجموعة من الدول والأمم الواقعة فى قلب أوروبا وفى جنوبها الشرقى لا بأمة واحدة . ثم إن الهند يسكانها تزيد على ثلاثة أرباع سكان القارة الأوروبية ؛ وهى بدياناتها وعقائدها ولغاتها وألوان الثقافة والفكر فيها متحف لا نظير له فى بقاع الأرض . ولئن نظرت الهند إلى تاريخها السابق تستوحيه ما يعينها على الاتجاه نحو الوحدة فهى لن تجد فى ذلك التاريخ مثل ما وجد غيرها من أمم الشرق التى نظرت إلى الماضى فبعثت فيها روح الوحدة والتماسك . وهى إن نظرت إلى أوروبا تحتذيها فلن تجد ما تقيس عليه أو تنقل عنه اللهم إلا إذا رأت أن تسبق إلى ماتسبى إليه أوروبا فتألف من عدد من « الأمم الهندية المتحدة » ، وهى خطوة صائبة وسديدة ولاشك ، ولكنها تكون أقرب إلى المفطرة منها إلى التدرج الطبيعى فى حياة بلاد تغلغل فيها التفرقة حتى مست أسس الحياة وقواعدها الأولى .

ليس ينفع إخواننا الهنود إذن أن يندفعوا وراء الرأى السياسى الخالص، فينسبوا كل ما فى مجتمعهم من عيوب إلى فعل المستعمرين وسياستهم فى التفرقة والنشئيت ، وتشجيع التناوب والتناحر . فعيوب المجتمع الهندى من هذه الناحية تبدو فى ضوء الدراسة الهادئة عيوباً أصيلة تتصل بالبيئة من جهة ، وبجياة السكان وحضارتهم وتاريخهم من جهة أخرى . وغاية ما هناك أن الانجليز وجدوا فى الهند مجالاً واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، ومرتعاً خصيباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ؛ وكانوا فى ذلك مستعمرين بارعين جعلوا من الهند درة التاج البريطانى الامبراطورى ! وإذا كان هذا صحيحاً - وهو ما تهدينا إليه الدراسة التى تجتنب العاطفة والميل - فلن يكفى لتحقيق الوحدة فى الهند أن يخرج منها الانجليز وأن يبحث منها أذنان الاستعمار ، وإن كان خروج هؤلاء المستعمرين وقطع السبيل على أذنانهم أمراً ضرورياً لوقف الداء عند الحد الذى وصل إليه . وخير للهنود أن يدركوا هذه الحقيقة الواقعة ، وأن يكونوا عمليين ، فلا تأخذهم العاطفة ، ولا يثنيهم الاندفاع السياسى عن دراسة بيئتهم ومجتمعهم ، ليخرجوا من هذه الدراسة بما ينير السبيل أمامهم ، ويعينهم على رسم الخطة العملية التى تناسب تلك البيئة ، وتتمشى مع تاريخ ذلك المجتمع . وهى خطة يحشى الذين يدرسون الهند دراسة هادئة أنها لن تحقق للمتحمسين للوحدة الشاملة آمالم العريضة وغاياتهم العاجلة ؛ ولكنها مع ذلك ستمهد السبيل تدريجياً إلى نوع من الاتحاد بين مجموعة صغيرة من الأمم الهندية المتحدة . . . ومن يدرى ! فقد تكون تلك سبيل الهند الطبيعية للخروج من مأزقها الشديد الذى ساقها إليه الأقدار . . . تلك التى جمعت إلى البيئة العقدة ، تاريخاً قديماً حافلاً بالتفرقة ، وتاريخاً وسيطاً مخضباً بالدماء ، ثم تاريخاً حديثاً قائماً على استغلال العيوب المتأصلة والضعف القائم استغلالاً ما كانت الهند لتستحقه ، وهى بلد المدنية العريقة ، ولؤلؤة الشرق فى التراث الفلسفى والثقافى العام !

ولنا عود لهذا الموضوع فى مقال قادم عن دولة باكستان .